على هامش « حادث الشام »

دموع . . . ودموع !

يا أيها العرب جميعاً !
خلدوا (يوم ٢٤ تموز) ، فانه كان
لنا يوم البؤس ، وإنه كان لنا يوم النعيم !

للأستـــاذ علي الطنطاوي

كنت تلميذاً في الصف الأدنى من المدرسة الثانوية ، وكان لي رفاق لهم على حداثة أسنانهم قلوب فيها إيمان وفيها حماسة وفيها وطنية ، وكنا نحس وقد ولى حكم الأتراك ، وغاب عنا شبح الذعر والهول : جمال باشا ... واختفت المشانق ، وبطل الهمس ، والتلفت كلما ذكر هذا الإسم المرعب ، وجاء الشريف فيصل ، وجاءت معه الأفراح ، وقامت الأعراس ، ودقت طبول البشائر... كنا نحس أننا نعيش في دنيا من الأحلام ، في أيام كلها أعياد ، وكنا إذ نجول كل خميس في المدينة ننشد (جرمبليز العرب) :

أيها المولى المعظم   فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم   ملك جدك النبي

فيردده معنا التجار في دكاكينهم ، والباعة من وراء دوابهم ، والمارة في دروبهم ، وتردده منازل دمشق ودورها ، ومساجدها وقصورها ، وقلعتها وسورها ، وتردده الأرض والسماء ... أو هكذا كان يخيل إلينا ، فيشد هذا الخيال من عزائمنا ، فننتفخ ونتطاول ، ونمد أصواتنا ونقويها لنشعر أنفسنا أننا صرنا رجالا ، وصرنا جنداً كالرجال الذين كنا نراهم يصرخون في المظاهرات ويلوحون بالسيوف والبنادق ، ويطلقون النار من مسدساتهم كلما أخذت منهم الحماسة وهزهم الطرب ، بعد أن مضت علينا أيام ما كنا نرى فيها في دمشق رجلا إلا فاراً من الجيش مختبئاً يمشي مشية المذعور ، يخاف أن يلمحه رسول الموت (أبولبادة) فيقول له الكلمة التي حفظناها ، ونحن صغار لا ندري معناها ، ولكنا ندري أنها كانت تخيف وترعب ، ويصفر منها الوجه ، وترتجف الاضلاع ، كلمة : (ورده وثيقة) ؟

* * *

وإنا لسادرون في أفراحنا ، ممعنون في مسراتنا ، مزهوون باستقلالنا ، وإذا بنا نسمع الصريخ يصرخ في الحي ، ونرى الخطباء يقومون في الأسواق ينذرون الناس خطباً داهماً ، وشراً مقبلا ، ولم ندر نحن الفتية الصغار ما ذا جرى ؛ فسألنا : هل عاد جمال باشا ؟ هل رجعت مشانقه ؟ قالوا : لا ، جاء ما هو شر منه وأمر ، غورو ؛ قلنا : وما غورو ؟ قالوا : الأعور ... فاعتقدنا أنه الأعور الدجال الذي يظهر في آخر الزمان !

بها سياق القرآن ، أم يعترض على القرآن ذاته !؟

وكأنه يريد أن يأخذ ما في هذه الآيات في سهولة ويسر واقتناع وتسليم بدون فكر ومناقشة لأنه يراها لا تنهض ولا تستقيم على الفكر والجدل والمناقشة !

ولست أدري ما هو « الوجه الواحد الصحيح » الذي تؤمن به النفس في هذه الآيات إيمان اقتناع وتسليم ، وترفض بعده الأوجه المنطقية الرائقة ؟

أيكون القرآن قد عجز عن إقامة دليل ذهني واحد على أكبر قضية من قضاياه ، قضية التوحيد ؟ !

ولست أدري لم يسلك الأستاذ سيد الإسلام مع غيره من الأديان موحدة ووثنية ومعددة في تلك الطريق التي ليس فيها هدى من نور العقل ، مع أن الفرض أنه يعلم أن القرآن له تفرد خاص وأنه لو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلي الطبيعي الوحيد الذي يثبت الموجود الواحد الكامل الأزلي الأبدي كما أثبته « كانت » ونوه به الأستاذ الكبير العقاد في كتابه « عبقرية محمد » وكما قرره في كتابه الأخير (في بيتي) الملخص لفلسفته وآرائه ؟

وبعد فإنه ليس وراء ما وضعنا القرآن عليه من أعماق الكون مستقر آخر يصح أن نتعمق إليه ونستقر عليه .

وليس مذهب هناك من مذاهب الفكر الخالص يستطيع أن يأخذنا إلى غير ما أخذنا به القرآن في الطبيعة وما بعد الطبيعة .

إنه أحال كل قضايا الإلهية وكمالاتها إلى قوة الحكم العقلي وحده . فكان لقاء بديع بين الدين والعقل ، وهو لقاء تحتاجه البشرية مسيس الاحتياج .

عبد المنعم خلاف

ورأينا الدنيا تقوم وتقعد ، في كل مكان حشد ، وعلى كل منبر خطيب ، وعجت الشوارع بالناس ، ولم نكن نفهم ما يجرى من حولنا ، وإن كنا نسمى في أعقاب الناس متسائلين مشاركين ما استطعنا ، ثم رأينا الجموع تمضى إلى النادى العربى ...

النادى العربى الذى كان مثوى الوطنية ، وكان لنا نحن الصغار المنار الهادى ، من خطبه تعلمنا الخطب ، ومن بيانه قبسنا البيان ، ومن رجاله عرفنا الرجال ، هذا النادى الذى خان أهله عهده ، وهجروا مجده ، وقعدوا به بعد النز ، ونسوه بعد أن كان هو الذى يذكرهم أوطانهم ، فغدا ويا خجلتاه حانة ، أو شيئاً يشبه الحانة ، يقال له شهر زاد !

مضت الجموع إلى النادى يموج بعضها في بعض ، ومضينا نتبعهم ، حتى إذا وقفوا أطل عليهم من شرفته أخطب خطيب عرفته ، وأطلقه لساناً ، وأشرفه بياناً ، وأشده على القلوب سلطاناً شيخنا وأستاذنا الشيخ عبد الرحمن سلام البيروتى الشاعر الفقيه رحمه الله وستر في الناس طيبة ذكراه ، أطل على بحر من البشر يزخر بأقوام برزوا للموت ، يدفعون الغير عن الحمى ، ويحمون الديار ، فامتلأ بهم ما بين المستشفى العسكرى ، ومحطة الحجاز ، وميدان الشهداء ، وحديقة الأمة ، ولم يبق في تلك الرحاب كلها موطئ قدم ، أطل فلما رأى الناس استعبر وبكى ، وخطب خطبة إذا قلت قد زلزلت القلوب أكون قد أقللت ، وإن قلت ألهبت النفوس لا أكون قد بلغت ، خطبة لو كانت بلاغة بشر معجزة لكانت من معجزات البلاغة ، خطبة ما سمعت مثلها ، وقد سمعت ملوك القول ، وفرسان المنابر ، حملتنى هذه الخطبة إلى آفاق المستقبل ، فنسيت أنى تلميذ صغير ، ورأيتنى رجلا ، ثم صبت البطولة في أعصابى ، فأحسست أنى كفولنورو ، وجيشه العادى أورده وحدى ، وكبرت في نفسى حتى صغر هذا الأعور الدجال ، الذى خافوه وخوفونا منه ، فلم يعد شيئاً ، وإنى لا أزال أحفظ منها قوله عليه رحمة الله ، وقد سكت لحظة وهو يخطب ، وسكت الناس حتى لو أنك ألقيت إبرة على بساط لسمعت لها صوتاً ، ثم ولى وجهه تلقاء المغرب ، وصرخ من قلبه الكبير صرخة لا تزال إلى اليوم تدوى في مسمعي : « غورو ! لن تدخلها إلا على هذه الأجساد » ! وأعقبها صرخة أخرى ، تقلقل لها الفلك ، ورجف الكون ، تكبيرة واحدة انبعثت من أربعين ألف حنجرة مؤمنة !

ومضى الناس قدماً إلى ميسلون !

أما نحن فمضينا إلى بيوتنا ، فما كان فينا من بلغ سن القتال

* * *

ولم يكن إلا يوم وبعض يوم حتى رأينا الدنيا تتبدل غير الدنيا وأبصرنا كل شيء قد تغير ، وإذا الناس في جمود كأنهم في مأتم ، وإذا الخطباء الذين كانوا ملء الأسماع والأبصار قد اختفوا ، وإذا الأعلام ذوات الألوان الأربعة قد طويت ، وإذا فيصل الذى كنا نهتف باسمه ونعتز به ، ويشعر كل واحد منا أنه يملك فيه ملكا إذ يكون له ملكا ، قد سافر وخلا منه قصره في (العفيف) ، فاحتله عدوه ، ونام فيه على فرشه ، واستوى على عرشه ، فحزنا وسألنا : ما ذا جرى يا ويحكم حتى انهار الصرح في يوم واحد ، وضاع البشر ، وتبدلت الدنيا ، قالوا : اذهبوا لا تسألوا ، إنا خسرنا ، ورجعنا من (ميسلون) ، وقد خلفنا فيها استقلالنا الوليد ، وقائدنا الشهيد ، وصارت الغلبة لهذا العادى الغاشى الذى اقتحم علينا البلد اقتحام الغاصب ، غورو ! قلنا : الأعور الدجال ؟ قالوا : اسكتوا ، اسكتوا ، لا يسمعكم أحد

وذهبنا نستطلع حقيقة الخبر ، فقادتنا الخطا إلى (الثكنة الحميدية) ، فوجدنا عندها جنداً غرباء عنا ، سوداً برابرة ، وشقراً مغاربة ، وشقراً فرنسيين ، وإذا هم يخفضون علمنا ، ويلقونه ، ويرفعون علماً فيه ثلاثة ألوان ... وتلفت فإذا رجال منا واقفون ورأى ، ودموعهم تسيل على خدودهم في صمت وحرقة وألم خفى يأكل الأكباد ، وكان ذلك يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ ، وكانت تلك هى (الدموع) الأولى !

* * *

ومر ربع قرن ، خمس وعشرون سنة كاملة لا تنقص يوماً ولا تزيد يوماً ، حملنا فيها ألوان الأذى ، وذقنا فيها الموت من كل طبق ، وعلى كل خوان ، ورأينا النار تأكل دورنا ، والقنابل تهدم على رؤوسنا منازلنا ، فتهدمت بيوت من أبهى وأغلى وأحلى بيوت دمشق ، وقضى فتية من أجمل وأكمل وأنبل فتيتها . وأبصرنا أياماً سوداً ، ومصائب شداداً ، ولكنا ما جبنا ولا خفنا ، وكنا عزلا أقلة ، وكانت تربعتنا فرنسا القوية العظيمة ذات الحول والطول ، فقارعنا فرنسا ، ولقينا بصدورنا الرصاص ، وهجمنا بالخناجر على الدبابات ، وقابلنا بالحجارة الرشاشات ، وصبرنا فانتصرنا

وكان يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٤٥ ، ورأيت بعيني العلم ذا الألوان الأربعة يرتفع مرة ثانية على (الثكنة الحميدية) في دمشق ، ورأيت